# حظوة طبيعية وتحكّم شامل في المجال

## المقدّمة

ثمّن الأمريكيون المزايا المتعدّدة التي وفّرتها الطبيعة وساعدهم التحكّم الشامل في مجالهم الشّاسع والثري على إرساء قوّتهم الاقتصادية وتدعيمها بالاعتماد على منظومة نقل متطورة ومتكاملة وشبكة حواضر نشيطة ومترابطة.

## I- مؤهّلات طبيعية تسند القوة الإقتصادية

تُعدّ الولايات المتحدة الأمريكية بلدا محظوظا يتمتّع بمجال شاسع ومنفتح يجُود بثروات طبيعية ضخمة ومتنوعة استندت إليها مختلف القطاعات الاقتصادية لتلبية حاجاتها المتزايدة ودعم قوّتها الإنتاجية.

### 1- بلد شاسع ومنفتح

تمتلك الولايات المتحدة الأمريكية مجالا وطنيا فسيحا ذو أبعاد قارية [1] يغطي مساحة تقارب 9,4 مليون كلم$^2$ تتجاوز بكثير ضعف مساحة الاتحاد الأوروبي بأقطاره السبعة والعشرين. ولئن اقتضت شساعة هذا "البلد القارة" جهودا كبيرة لتذليل طول المسافات بين مختلف أجزائه وربط المناطق التي تزخر بالموارد بمراكز استهلاكها، فإنها وفّرت سواحل بحرية يتجاوز طولها 20 ألف كيلومتر تتخلّلها مصبّات نهرية وخلجان عميقة ملائمة لإقامة الموانئ خاصّة في الشمال الشرقي. وتشرف الولايات المتّحدة بفضل هذه السواحل الطّويلة على أنشط المحيطات وتنفتح على كلّ القارات وهو ما جعلها تستأثر بموقع مركزي في المجال العالمي. وبذلك فهي تحظى بثلاث واجهات بحرية نشيطة تيسّر الاتصال والتبادل المكثف شرقا مع أوروبا وإفريقيا وجنوبا مع أمريكا اللاتينية وغربا مع اليابان والصّين والبلدان الصّناعية الجديدة المطلّة على المحيط الهادي مركز الثقل الاقتصادي العالمي. وقد ساعد هذا الانفتاح أقاليم حزام الشمس والشمال الشرقي وخصوصا الميغالوبوليس على أن تصبح أكثر الأقاليم حيوية وإسهاما في دعم القوة الأمريكية.

### 2- موارد سطحية متنوّعة

يحتوي المجال الأمريكي على أراض شاسعة تحتلّ السهول نصف مساحتها وتغطي التربة الخصبة قسما كبيرا منها، ومن ضمنها السهول الساحلية الأطلنطية شرقا والسهول الكبرى التي تتوسط البلاد [2]. وتوفّر هذه السّهول للفلاحة أكثر من 177 مليون هكتار من الأراضي الزراعية، فتضمن لها كلّ حاجاتها ويُحتفظ بجزء منها كمدخرات توظّف في الإنتاج حسب مقتضيات السّوق. وقد أدّى تظافر شساعة البلاد وامتدادها في المنطقة المعتدلة والاتجاه الطولي للوحدات التضاريسية إلى تعدّد الأقاليم المناخيّة [3] وأسهم في تنوّع المنتجات الفلاحية وضخامتها فضلا عن وفرة الموارد النباتية من غابات ومراع طبيعية [4]. كما ساعدت الظروف المناخية على تكوّن شبكات أنهار عملاقة مثل نهر الميسيسيبي في الوسط ونهري كولومبيا وكولورادو في الغرب وفّرت موارد مائية هائلة تمت تعبئتها لتوسيع المساحات السقوية خاصّة في الأقاليم الغربيّة، ويسّرت حركة النقل الدّاخلي علاوة عن دورها في توليد الطاقة الكهربائية. إلاّ أنّ وفرة الموارد السطحية التي يتمتّع بها الاقتصاد الأمريكي لا تحجب الأخطار التي تتعرّض إليها البلاد والخسائر الجسيمة التي تخلّفها موجات البرد والحرّ والأعاصير والفيضانات والزلازل [5]. كما أنّ الإفراط في استغلال هذه الموارد أنهك التربة واستنزف بعض الموائد المائية في مناطق الزراعة السقويّة ممّا استوجب تدخّل الدولة لمقاومة التبذير ولحماية البيئة.

### 3- موارد باطنية ضخمة

يزخر باطن الأرض الأمريكية بثروات كبيرة من الخامات المعدنية والطّاقية [6] لا تحول وفرتها دون اللجوء إلى التوريد لتغطية حاجات البلاد المتزايدة. وتوفّر المناجم المنتشرة في عديد المناطق لاسيما بالجبال الغربيّة أصنافا مختلفة من المعادن الخام بكمّيات كبيرة بوّأت الولايات المتّحدة مراتب متقدّمة ضمن أكبر المنتجين في العالم للنّحاس والرصاص والزنك والفسفاط وبعض الخامات النّادرة والمعادن النفيسة [7]. إلاّ أن تراجع بعض المدّخرات وارتفاع كلفة الاستخراج والنقص في بعض المعادن الأساسية مثل الكروم والبوكسيت حتّم اللجوء إلى التوريد. أمّا الموارد الطاقية فإن مدّخراتها كبيرة وإنتاجها كذلك ضخم. غير أنها لا تفي بحاجة أكبر مجتمع مستهلك للطاقة وأعظم قوّة اقتصادية في العالم. فلئن وفر استغلال مدّخرات الفحم الحجري الطّائلة بجبال الرّوكي وجبال الأبلاش

خصوصا فائضا هاما للتصدير، فإنّ مدخرات البلاد من المحروقات السّائلة أضحت محدودة، في الوقت الذي تراجع فيه إنتاج النفط إذ لم تعد حقول الوسط القاري وألاسكا وخليج المكسيك برا وبحرا تستجيب لحاجات البلاد المتزايدة من الطاقة [8 ]. ورغم تطوير الطاقات البديلة وتنامي إ نتاج الطاقة الكهرومائية والطاقة النووية، فإن الولايات المتّحدة الأمريكيّة تعمد إ لى استيراد كميات كبيرة من النفط تؤمّنها بانتظام شركات قويّة مثل إكسون وشيفرون ... تنتشر في عدة مناطق من العالم وتحظى بدعم الإدارات الأ مريكية المتعاقبة. كما دفعت ضخامة الاستهلاك إلى تكوين مخزون استراتيجي من النفط للتأثير في السّوق العالمية واتقاء تقلّبات أسعارها.

## II- تحكّم شامل في المجال يؤمّن القوّة الأمريكية

إنّ سرعة اكتمال الوحدة الترابية للولايات المتّحدة الأمريكيّة وشساعة الأ رض وحداثة التعمير لم تحُل كلّها دون التحكّ م في المجال الوطني وتنظيمه بفضل تركيز منظومة نقل واتصالات متكاملة وشبكة كثيفة من الحواضر المترابطة.

### 1- تملّك مبكّر للتراب الوطني وتنظيم سياسي إداري ناجع

لئن تشكّل المجال الوطني على مراحل وكان تعمير الأرض متقطّعا فإنّ الوحدة الترابية اكتملت بسرعة خلال النصف الأ ول من القرن التاسع عشر عندما بلغت حدود البلاد سواحل خليج المكسيك والمحيط الهادي [9]. فقد كانت الولايات المتّحدة الأمريكيّ ة عند الاستقلال سنة 1776 تتكوّ ن من ثلاثة عشر ولاية منحصرة بين السّاحل الأ طلنطي وجبال الأبّلاش ثم توسّعت رقعتها بسرعة إ ثر انضمام ولايات جديدة مثل أ وهايو في سنة 1803 وبعد شراء مقاطعات أخرى مثل لويزيانا وفلوريدا وهو ما وفّر للبلاد منفذا على خليج المكسيك وفتح آفاقا للتوسّع في اتجاه جبال الرّ وكي وما وراءها. وبعد إ رغام المكسيك على التخلّ ي عن التكساس وكاليفورنيا، أصبحت الولايات المتّحدة الأمريكيّة سنة 1850 تمتدّ من المحيط الأطلنطي إ لى المحيط الهادي. وازدادت مساحة البلاد اتساعا بعد شراء ألاسكا وضمّ جزر هاواي وأضحت مكوّنة من 50 ولاية في إطار نظام إداري سياسي فيدرالي يمنح لكلّ ولاية حكما ذاتيا واسعا. وقد اعتُبرت الفدرالية النظام الأ فضل الذي يتلاءم مع مساحة البلاد الشاسعة وتعدّد أجناسها وثقافاتها وأ صبح نموذجا لعديد الدّ ول. ولئن يسّ رت البنية الفدرالية اندماج كلّ الولايات في وحدة ترابية متماسكة، فإنّ ها ساعدت على ظهور مجال متعدّد الأقطاب وأ سهمت في بروز عدد كبير من الحواضر التي تتمتّع بنفوذ إقليمي قوي وقدرة فائقة على استقطاب المجال وتنظيمه.

### 2- منظومة نقل واتصالات متكاملة ومتطوّرة

أرست الولايات المتّحدة الأمريكيّ ة منظومة نقل واتصالات كثيفة ومتنوّعة يسّرت التحكّم في مجالها الوطني ودعّمت نفوذها العالمي [10].

#### أ- تنوّع شبكات النقل البرّي

لقد أدّت الشبكة الحديدية دورا أساسيا في تعمير البلاد، ورغم منافسة الطرقات فإنّ خطوطها عبرالقاريّة لا تزال تؤمّن نقل قرابة ثلث البضائع لاسيما الثقيلة منها كالفحم والحديد والحبوب في حين تضمن شبكة الطرقات نقل أكثر من 80 % من المسافرين ونسبة متزايدة من نقل البضائع تفوق الربع. ولئن ارتفعت كثافة شبكة الطرقات العادية في شرق البلاد، فإن شبكة الطرقات السيّارة التي تعدّ الأكثر طولا في العالم بما يقارب 170 ألف كيلومترا تُيسّر الرّ بط بين كلّ ولايات البلاد وحواضرها وتستجيب لتحرّكيّة السكان الفائقة ولسرعة تنامي القوّة الإنتاجية الأمريكية [11]. ويكتمل النقل البرّي بأطول شبكة أنابيب لنقل المحروقات في العالم تصل أكبر حقول النفط والغاز الطبيعي الواقعة بسواحل خليج المكسيك وألاسكا بأهمّ مناطق الاستهلاك في الشمال الشرقي خصوصا حيث توجد أكبر التجمّعات الحضرية وأقدم المراكز الصّناعية.

#### ب- دور محوري للنقل المائي

يقوم النقل المائي بدور أساسي في الرّبط بين الشمال والجنوب وذلك بالاعتماد على منظومتين متكاملتين تتمثلان في شبكة الميسيسيبي التي تعتبر العمود الفقري لاقتصاد الأقاليم الدّاخلية والبحيرات الكبرى المتّصلة بالمحيط الأ طلنطي بواسطة نهر سان لوران وعدّة قنوات تمكّن السّفن من التوغّل داخل الشمال الشرقي. وتَنْ شط حركة الذّ قل بين السواحل الشرقية والجنوبية والغربية بفضل موانئ كبرى تمتاز بأ رصفتها الطويلة وتجهيزاتها المتطوّرة وتعدّ من أ نشط الموانئ في العالم مثل ميناء لويزيانا وهوستن ونيويورك.

### ج- تطوّر النقل الجوّي

كما تملك الولايات المتّحدة الأمريكيّة شبكة كثيفة من المطارات تعدّ أكثر من 15 ألف مطار تغطّي كامل التراب الأمريكي وتيسّر اندماج المدن الأمريكية في شبكة النقل العالمية. وتبرز ضمن هذه الشبكة مطارات محوريّة متفوّقة عالميا أصبحت نموذجا لتنظيم النقل الجوّي عبر العالم مثل مطارات أطلنطا وشيكاغو ودالاس وبوسطن.

### د- نموّ متسارع لشبكة الاتصالات

تدعّمت منظومة النقل بشبكة اتصالات تُعدّ من أكثر الشبكات امتدادا وكثافة في العالم إذ تجاوز عدد الخطوط الهاتفية القارة 141 مليون خطّ وعدد الهواتف الجوّالة 286 مليون خط سنة 2009 وارتفع عدد مستعملي الأنترنيت إلى 245 مليون شخص في نفس السّنة. وقد تحقق ذلك بفضل تركيز شبكة الطرقات السيّارة للإعلام منذ 1993 [12]. وأصبحت الولايات المتّحدة الأمريكية موطن أكبر عدد من الخوادم المسدية لخدمات الأنترنات، وهو ما جعلها تستأثر بأكبر جزء من أدفاق الإعلام في العالم وتستفيد من تناميها لدعم القدرة التنافسيّة للمؤسّسات الأمريكية وتوسيع النفوذ الأمريكي في العالم.

ولئن تيسّرت للأمريكيين السيطرة الكاملة على مجالهم الوطني بفضل كثافة شبكة النقل والاتصالات وتنوّعها، فإنّ التّعويل على وسائل النقل الخاصّة يسهم في تضخّم استهلاك الطّاقة واستفحال مشاكل التلوّث.

## 3- حواضر نشيطة تؤطّر المجال وتدعم القوّة الأمريكية

لم يتحقّق التحكّم الشامل في المجال الأمريكي بالاعتماد على شبكات النقل والاتصالات فحسب، بل اعتمد أيضا على شبكة متماسكة من المدن استفادت بدورها من تطوّر مختلف وسائل النقل لتدعيم قدرتها على استقطاب المجال وتنظيمه. لقد أدّت المدن منذ بداية تشكل التراب الأمريكي دورا رائدا في تعمير المجال إذ كانت نقاط تجمّع المهاجرين الوافدين على سواحل البلاد ومنطلقا لتعمير المناطق الشاسعة داخلها ثمّ سرعان ما تحوّلت إلى عُقد نقل تنطلق منها الخطوط الحديدية والطرقات الطويلة. ومع تواصل موجات الهجرة الوافدة عليها وتنامي قوّتها الاقتصادية، أصبحت الولايات المتّحدة تمتلك شبكة كثيفة من المدن تحتضن اليوم 80% من مجموع السكّان و98% من النشيطين. ورغم اختلاف هذه المدن في حجمها وأنشطتها وتفاوُت كثافتها من إقليم إلى آخر فإنّ نفوذها ما انفكّ يتدعّم على المستويين الإقليمي والقطري. وتعُدّ البلاد شبكة كثيفة تضمّ 274 منطقة حاضرية يتجاوز عدد سكّان كلّ منها 100 ألف ساكن. ومن بين هذه المناطق تبرز 24 حاضرة بأكثر من مليوني نسمة لكلّ منها تمثل أقطابا كبرى للإنتاج والاستهلاك والتقرير. ولئن ارتفعت كثافة شبكة الحواضر في الشمال الشرقي، فإنّ أكثر الحواضر حيويّة وأسرعها نموّا توجد بحزام الشمس. فقد اقترن تقلّص الوزن الديمغرافي والاقتصادي لحواضر الميغالوبوليس والبحيرات الكبرى مثل بلتيمور وفيلادلفيا وشيكاغو وديتروت، بتنامي مكانة حواضر الجنوب الشرقي والشمال الغربي على غرار ميامي ودالاس وهوستن وسياطل، وتزايد حصّتها من الإنتاج الصناعي الأمريكي.

وتسهم الحواضر الأمريكية بمختلف أصنافها في تدعيم الاقتصاد وتنظيم المجال حسب مستوى نفوذها [14 و15]. فعلاوة على المدن المحليّة التي تنتشر في كلّ الولايات تبرز الحواضر الإقليمية بقوّة نفوذها داخل الولايات التي توجد بها على غرار دَنفر وفونيكس ومينيابوليس. أمّا الحواضر القطرية مثل شيكاغو وبوسطن ولوس أنجلس فإنّ مناطق نفوذها تمتدّ إلى جزء كبير من المجال الأمريكي وتتمتّع بقدرة متزايدة على الإشعاع العالمي. وتتميّز مدينة واشنطن بوظيفتها السياسية منذ اتخاذها عاصمة فيدرالية للبلاد وتدعّم نفوذها العالمي باحتضانها مقرّ صندوق النقد الدولي والبنك العالمي في حين تنفرد نيويورك بإشعاع وطني وعالمي مميّز، فهي مدينة عملاقة تُعدّ عاصمة البلاد الاقتصادية وتأوي المقرّات الاجتماعية لأهم الشركات الأمريكية وأكبر بورصة في العالم كما تعدُّ المركز العالمي الأوّل لاتخاذ القرارات الأمميّة التي تحدّد مصير العالم.

## الخاتمة

يسّر تحكّم الولايات المتّحدة الأمريكيّة في مجالها الشاسع توظيف مؤهّلاتها الطبيعية العريضة ومواردها البشرية المتنوّعة في إطار نظام رأسمالي ناجع لبناء قوّة اقتصادية عظمى تختزلها الميغالوبوليس الأمريكية.